



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة : الاولى

أستاذ المادة : أ.د زياد عويد سويدان

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الشرق القديم (مصر القديمة)

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of ancient East (Egypt)**

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية : أوضاع مصر تحت الاحتلال الاخميني

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : **Egypt under Ptolemaic Occupation**

أوضاع مصر ابان الاحتلال البطلمي .

حالة البلاد قبل قيام الثورة

قامت في مصر في أواخر عهد الملك «بطليموس الرابع» ثورة عارمة، وهذه الثورة كانت ترمي إلى القضاء على الحكم الأجنبي الغاشم الذي ظل يزرع تحت عبئه الشعب المصري الأصيل؛ لما كان يلاقيه من مذلة وهوان وفقر وحرمان على أيدي المستعمرين بوجه عام، ولا غرابة في ذلك؛ فقد كانت سياسة ملوك البطالمة منذ أن وطئت أقدامهم أرض الكنانة هي استغلال أرض مصر وأهلها بكل الطرق والوسائل مهما كانت ظالمة مجحفة بأهل البلاد ... وذلك في حين أن المستعمرين الذين جاءوا في ركاب ملوك البطالمة من إغريق ومقدونيين وجنود مرتزقة كانوا أصحاب امتيازات خاصة يتمتعون بها على حساب الشعب المصري المغلوب على أمره.

وشعر المصريون منذ بداية الحكم البطلمي بالامتيازات الهائلة التي كان يتمتع بها المقدونيون والإغريق ولاسيما المعاملة في كل مرافق الحياة؛ إذ كان المستعمر هو السيد في كل شيء، وآية ذلك أن كل الوظائف الرئيسية كانت في يد الأجانب المستعمرين، كما كانت التجارة الرابحة في أيديهم، والمزارع المثمرة هم ملاكها، والمسكن الفاخرة هم سكانها، وبلاط الملك يتألف من بينهم، والجيش يتألف منهم، وسفراء مصر في البلاد الأجنبية يُنتخبون من بين صفوفهم، وذلك في حين نجد أن أحقر الأعمال التي كانت تحتاج إلى الكد والكدح كان يقوم بها المصريون؛ ويجبرون على ممارستها لكسب ما يسد نفقاتهم، وكانت أحقر الوظائف الثانوية تُسندُ إليهم، ويشرف عليهم في تنفيذها أصحاب الوظائف العالية أسيادهم، ولم نسمع إلا نادرًا أن مصريًا كان يتقلد وظيفة كبيرة، أو حتى متوسطة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الحرف والصناعات فإن الدنيء الخسيس منها كان لا يقوم بإنجازه إلا المصريون؛ فكان ضارب الطوب مصريًا، ومربي الخنازير مصريًا وصانع الفخار مصريًا، وراعي الماشية مصريًا. أما في أعمال الزراعة نجد أن زراعة الأرض وفلاحتها وجني محاصيلها كان يقوم به الفلاح المصري، وكان يعاني من جراء ذلك مغارم ومظالم لا قبَل له بها لدرجة أنه كان أحيانًا يترك زراعته ويفر إلى المعبد حيث يلتجئ إلى حماه؛ إذ كان المعبد هو المأوى الوحيد الذي يمكنه أن يحتتمي فيه من الظلم والاضطهاد وسوء المعاملة التي كان يلاقيها على أيدي أصحاب المزارع ومن عمال الملك الذين كانوا يشددون عليه الخناق في جمع الضرائب على كل شيء مهما كان تافهًا.

أما الضرائب التي كانت تُجَبَى على الحرف والصناعات من المصريين؛ فكانت مضرب الأمثال في فداحتها لدرجة أن أصحاب هذه الحرف كانوا يضطرون أحيانًا إلى تركها هربًا من فداحة الضرائب التي كانت تُبتز منهم.

وعلى أية حال نجد أنه على الرغم من سيطرة المستعمرين على المصريين فإنهم مع ذلك كانوا لا يشعرون دائمًا بالأمان في الريف المصري، ولا أدل على ذلك من أن أحد كبار الموظفين الإغريق قد كتب إلى «زينون» يقول: إن محصول الكروم قد بدأ، ويطلب إليه إرسال عشرة حراس على الأقل، ثم ترحيل الموجودين عنده حتى لا يحدث ما لا تُحمد عقباه. هذا، ولدينا جزء من رسالة من إغريق أرسلوا لحراسة الكروم، وقد طلبوا إما إرسال مدد أو أن يُعْفُوا من أعمالهم؛ وذلك لأن أحد الناس قد قال لهم: إن من خطل الرأي استخدام شبان مصريين. وكانت الإدارة الإغريقية على أية حال لا تفكر بالعلاقات الرسمية أو غير الرسمية — إلا في الفوائد التي كان يمكن انتزاعها من عمل السكان المواطنين. وكانت من نتائج هذه المعاملة التي تفرق بين الإغريقي والمصري أن أخذ بعض المصريين يتكثرون فيما بينهم إلى أن ظهر بينهم فعلاً تضامن في مواقف معروفة، وبخاصة عندما نعلم أن الشعب المصري الأصيل لم ينس أبدًا أن الإغريق وأسرة البطالمة لم يكونوا إلا أجناب ودخلاء على بلادهم، وذلك على الرغم من أنهم كانوا أحيانًا يلعبون — بكل سرور — دور المحامي

الكريم فإنهم كانوا بوجه عام لا يفعلون ذلك إلا لأن أهل البلاد كانوا في نظرهم قوة عاملة لا غنى عنها لقيام إمبراطوريتهم، وأنه يجب من أجل ذلك استغلالهم بقدر المستطاع وبكل الطرق، ومن ثم نجد أنهم كانوا يحتقرونهم، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون شرهم وبأسهم. ولم يكن لدى المصري في هذا الموقف سلاح يحارب به هؤلاء الأجانب المغتصبين إلا العمل على وحدة الأسرة وتضامن الشعب، وبخاصة طبقة الفلاحين، وبذلك أصبح عند المصريين قوة يحاربون بها الإدارة الإغريقية بقدر ما تسمح به الأحوال، وهذا التضامن القومي كان يتمثل بوضوح في غالب الأحيان في المقاومة السلبية التي كانت تتجلى في أفراد الشعب عن تدبير وروية؛ فكانوا في كثير من الأحيان ينالون مطالبهم على طول الخط. هذا، وقد أسهنا الحديث عن العلاقات الإغريقية والمصرية من كل الوجوه في فصل خاص في: «مصر القديمة» الجزء الرابع عشر.

أول ثورة قامت في عهد البطالمة

ولقد ظل أفراد الشعب المصري يتحملون كل مظالم البطالمة وعسفهم، يعاونهم في ذلك رجال حكومتهم وأهل اليسار منهم من الإغريق والمقدونيين، بل وحتى اليهود إلى أن سنحت الفرصة التي مهدت لهم القيام بثورة كانت أولى الثورات في مصر البطلمية التي وصلت عنها معلومات إلينا حتى الآن. وهذه الثورة وقعت فعلاً في الفترة القصيرة التي تسنم فيها البطالمة قمة مجدهم وامتداد سلطانهم إلى درجة لم يبلغها حتى فراغ مصر العظام في عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولسنا في حاجة إلى أن نتساءل مع المؤرخين الأحداث^٢ — الذين سبق أن كتبوا عن أسباب هذه الثورة — لا سيما أنهم ذهبوا فيما أتوا من أسباب قيامها كل مذهب؛ فالأسباب معروفة الآن بعد فحص ما جاء في أوراق «زينون» من وصف الحياة المصرية وما كان بين المصريين والإغريق من مواقف اقتصادية وعنصرية، وهذا ما ألمحنا إليه هنا، وما فصلناه في الفصل الخاص الذي كتبناه في الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

الثورة في عهد بطليموس الثالث

كان الشعب المصري مُهيئاً للقيام بأي عمل يظهر فيه غضبه وعدم رضاه عن موقفه بالنسبة لملوك البطالمة والمستعمرين الذين كانوا مسيطرين على المصريين من إغريق ومقدونيين. وأتيحت هذه الفرصة عندما قام «بطليموس الثالث» في السنة الأولى من حكمه — مضطراً — لمساعدة أخته «لاوديسيا» وابنها ملك «سورية» .

وفي المدة التي كان فيها «بطليموس إيرجيتيس الأول» غائباً عن مقر ملكه بدأت أول حركة ثورية، وكانت الثروة بمثابة إيدان له أن الشعب المصري ليس براصٍ عن حكم أسرته. وكان من جراء قيام هذه الثورة أن اضطر «بطليموس الثالث» إلى العودة إلى بلاده دون إتمام ما كان عازماً عليه من فتوح شاسعة، ولا نزاع في أنه لولا شوب نار هذه الثورة لكان في استطاعته أن يستولي على كل الإمبراطورية السلوقية — كما عبر عن ذلك المؤرخ «جوستن» ومن بعده «سنت جيروم»^٤.

يبدو أن «بطليموس الثالث» عندما عاد إلى البلاد وهذا الثورة أخذ يفتن إلى ما كانت تنطوي عليه نفوس الشعب المصري من كراهية وحقد بالنسبة للبطالمة والمستعمرين معاً. وقد كان من أبرز الأسباب التي دعت إلى تدمير المصريين فداحة الضرائب، وكثرة توزيع الأراضي الزراعية على أسرى الحروب^٥ الأسيوية والجنود المرتزقين من الإغريق والمقدونيين الذين كانوا يفدون إلى مصر لمدد قصيرة، غير أنهم لا يلبثوا أن يستولوا على أراض زراعية ويستغلونها لحسابهم بأيدي مصرية. هذا، وتحدثنا المصادر أن «بطليموس إيرجيتيس الأول» قد وقع في أيامه قحط كاد يؤدي بحياة الشعب في عهده، وكان ذلك في أول حكمه للبلاد، ومن المحتمل أن هذا الحادث قد قضى على البقية الباقية مما عند المصريين من صبر على ما هم فيه من ضنك وضيق، وذلك على الرغم من أن هذا الملك اشترى لمصر الحبوب من الخارج لسد حاجتها وتلافياً للقحط.

ولدينا بردية عُثِرَ عليها في «تبتنيس»^٦ (= أم البرجات) يمكن إرجاع نوع كتابتها إلى النصف الثاني من القرن الثالث. فإذا نسبنا هذه البردية إلى عهد «بطليموس الثالث» فإنه في الإمكان أن يتخيل المرء — مما جاء فيها — حالة الاضطرابات التي كانت موجودة وقتئذ في مصر. وهذه الوثيقة تحتوي على منشور يتحدث عن إدارة حكومية كانت قد تحولت عن مجراها الأصلي. وهذا المنشور مثله كمثل المنشورات التي كان يسير الشعب على هديها؛ وذلك لأنها تشير إلى سوء تصرفات بعض الموظفين^٧ مع المصريين، كما تظهر لنا غرور الجامحين؛ يُضَافُ إلى ذلك أن هذا المنشور جاء فيه تلميحات عن تهرب الجنود من الانخراط في سلك الجندية أو بعبارة أدق خيانة الجنود المصريين. والواقع أن هذا المنشور قد أوضح لنا رد الفعل على الحكومة المركزية فيما له علاقة بالضرر المزدوج الذي كان ينخر في أصول نظام الإدارة المصرية، والمقصود بذلك سوء التصرف الإداري والتراخي المنتشر بين عامة الشعب فيما يخص أداء واجباتهم نحو بلادهم. غير أن توافق ما جاء في هذا المنشور على إثر موقعة «رفع» لا يجعل في استطاعتنا والحالة هذه أن نقرر فيما إذا كان ينبغي علينا تأريخ هذا المنشور بأوائل حكم «بطليموس إيرجيتيس الأول» أو في بداية حكم خلفه «بطليموس الرابع»^٨. وعلى أية حال فإن هذا المنشور يكشف لنا عن حالة الاضطرابات التي تميز بها النصف الثاني من القرن الثالث ق.م، وأخيرًا إذا صدقنا ما قصه علينا العالم الروسي «ستروف»^٩ فإنه من المحتمل أن قصة وحي صانع الفخار قد أُقِيت على ما يُظن في عهد «بطليموس الثالث». وهذه القصة هي عبارة عن تنبؤ وُضِعَ بالديموطيقية، وقد حُفِظَتْ لنا منه نسخة كُتِبَتْ بالإغريقية، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وهذا الأثر يميظ لنا اللثام عن كراهية شديدة للإسكندرية تكنها قلوب الشعب المصري للإغريق سكان هذه المدينة الواقعة على البحر، مما يمكن أن يؤدي إلى انفجار ثورة مصرية وطنية. وقد تساءل بعضهم فيما إذا كان هذا الكره الذي جاء ذكره في وحي صانع الفخار، كان المقصود به «بطليموس الثالث» ويطانته. هذا، ونجد من ناحية أخرى أن ما ذكره المؤرخ «أتو»^{١٠} من تلميحات جاءت فيما يتعلق بالحملات الباهرة والخيرات التي أغدقها هذا الملك — وهي التي تشير من بعيد إلى التماثيل المصرية التي كان قد اغتصبها الأعداء «المتمنطقين بأحزمة» — أنها ليست إلا مجرد عبارات فخار ومدح لا تتركز على حقائق تاريخية صحيحة؛ بل مجرد عبارات كان يتناقلها ملوك البطالمة الواحد عن الآخر، وذلك على غرار ما كان يفعله الفراعنة، وبخاصة في العهود الأخيرة، وليس أدل على ذلك من قوائم الممالك التي فتحها فراعنة مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة، والتي أخذ الفراعنة المتأخرون ينقلونها كأنها من عملهم، وأنهم قد قاموا بهذه الفتوح كرة أخرى، أو أنها من عملهم لا عمل من سبقهم.

وعلى أية حال لا نعرف على وجه التأكيد مدى انتشار الثورة في البلاد، ولا أمد استعارها. ولما مات الملك «بطليموس الثالث» عام ٢٢١ ق.م لم يترك وراءه خلفًا صالحًا لتولي العرش في المرحلة التي كانت البلاد في حاجة إلى ملك حازم. والواقع أن ابنه «بطليموس فيلوباتور» لم يكن الملك الذي تترقبه مصر في هذه اللحظة، وبخاصة عندما نعلم أنه كان على عرش السلوقيين فتى في مقتبل العمر ممثلًا نشاطًا وقوة عزيمة في حين كان على عرش مصر شابًا غرًا لا يهتم قبل كل شيء إلا بالتمتع بملاذ الحياة ومباهجها. وقد وصفه لنا «بوليبوس» بأنه كان ملكًا خاملاً، وفي الوقت نفسه يعرف من كل شيء طرفًا، كما كان مغرمًا بالبحث في الأمور الدينية الخفية، ولم يكذب ينقضي على موت «بطليموس الثالث» إلا فترة وجيزة حتى ظهرت علامات حرب أكيدة كان لا مناص من وقوعها في مديريات «آسيا الصغرى» التابعة للإمبراطورية البطلمية.

وفي هذه المرحلة كان الرجل الذي يقوم بأعباء الوزارة هو «بطليموس» المسمى «سوسيبيوس» وكان سياسيًا محنكًا، ومن ثم مد أجل المفاوضات مع «أنتيوكوس الثالث» بقدر ما وسعته الحيل، وكان في خلال ذلك يعمل على تمرين جيش عظيم من أبناء الشعب المصري للمرة الأولى في تاريخ البطالمة. هذا، وكانت الجنود المرتزقة تُجَنَّدُ بأموال باهظة في حين كان الجنود المصريون يُدْرَبُونَ على فنون الحرب على الطريقة المقدونية. غير أنه مما يؤسف له أن روح الخيانة كانت تحلق فوق رعوس الجميع، وما لبثت أن ظهرت هذه الروح الخبيثة في عليبة القوم وفي الإغريق الذين كانوا مقربين من الملك والذين كانوا في ضيافته. وقد فطن لذلك «سوسيبيوس» في الحال، وأمر بأن يُفَضَى عليهم سرًا. ود كان من جراء ذلك خيانة الجنود وخروجهم على مصر، وذلك أن ما أحرزه هذا الحاكم من انتصارات في بادئ الأمر على

«أنتيوكوس» أثارت عليه حقد رجال بلاط الإسكندرية المقربين من الملك، لدرجة أنه خاف أن يُعَدَّ عن سلطانه وخشي أن يُعْتَل، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان على حق.

ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ إذ نجد أن الحملة التي لعب فيها المصريون دور بطولة للمرة الأولى وكان لهم فيها القدر المعلى في إحراز النصر؛ كانت لحمتها وسداها تلك الخيانات على يد أولئك الأجناد الإغريق الذين وهبهم ملوك البطالمة أراضٍ شاسعة في أنحاء القطر مقابل خدماتهم الحربية. ورأيانهم في وقت تجمع الحشود لشن الحرب على العدو قد أخذت غيرتهم تنطفئ وحميتهم تنزعزع وعزيمتهم تخور. فمن ذلك ما نقرأه في بردية محفوظة الآن بمتحف «فرنكفورت» من أن هؤلاء الأجناد المرتزقين الذين كانوا يملكون أراضٍ في مصر وفي «سورية» أصبحوا يفضلون البقاء في أراضيمهم الزراعية على الذهاب إلى ساحة القتال مع العلم بأن هذا كان واجبهم الأول، والذي كان من أجله جلبهم ملك مصر من بلادهم.

موقعة «رفح» ونتائجها

أن قصة هذه الواقعة قد وصت إلينا من مصدرين رئيسيين؛ أولهما: ما رواه المؤرخ «بوليبوس» المؤرخ البطلمي الذي كان معاصرًا للملك «بطليموس الخامس» وابنه «بطليموس السادس». وحدثنا عن هذه الموقعة في كتابه الخامس؛ والمصدر الثاني: هو ما جاء في الرواية الديموطيقية التي وردت في مرسوم كُتِب بثلاث لغات وهي المصرية القديمة والديموطيقية ثم الإغريقية، وهذا المرسوم أصدره مجلس «منف» الكهنى بعد انتصار المصريين في هذه الموقعة في (٢٢ يونيو عام ٢١٧ ق.م). ومما يلفت النظر في هذا المرسوم هو أنه على الرغم من أن الكهنة المصريين كانوا قد أصدروه كغيره من المراسيم للتمدح بمناقب الملك وما له من أيادٍ بيضاء على الكهنة وأهل البلاد عامة، فإنه لم يفتهم هنا ذكر بعض التفاصيل التي وقعت أثناء المعركة؛ فمن ذلك أنه أُشِيرَ في المتن عن خيانة قام بها القواد مما يوحي إلى أنه كانت هناك فكرة القيام بعصيان في صبيحة النصر الذي أحرزه المصريون، مما اضطر الملك أو القائمين بالأمر إلى عقد صلح مشوه عزا المؤرخ «بوليبوس» سببه إلى رخاوة الملك وجبنه. ولسوء الحظ نجد أن متن المرسوم عند هذه النقطة غامض أو لم يصل إلى فهمه حتى الآن، وقد زاد الطين بلة أن كلاً من المتنين الهيروغليفي والإغريقي وهو المقابل للمتن الديموطيقي قد ضاع عند هذه النقطة، ومن أجل ذلك نجهل إذا كانت الجملة الآتية وهي: «وعلى أثر خيانة القواد قد مهد ذلك لـ «أنتيوكوس» لأن يؤلف جيشه في مدة سنتين وشهرين، وبذلك عاد إلى مصر»؛ يُفصَد بها القواد الإغريق الذين قاموا بالخيانة في أول المناوشات، أو يُفصَد قيام حركة عصيان كانت قد انفجرت بين الجنود قبل نهاية المعركة؟ وعلى أية حال فإنه لا يمكن القطع في معنى هذه الجملة الغامضة، وبخاصة عندما نعلم أن الأستاذ «سبيجلبرج» قد ترجمها بصورة مخالفة ...

ولا نزاع في أن المصريين الذين كانوا يحاربون جنبًا لجنب مع هؤلاء الإغريق والمقدونيين المأجورين قد لاحظوا ما كانت تنطوي عليه نفوسهم من خيانة وأنانية؛ ومن ثم كان ذلك حافزًا لهم على أن يقوموا بدورهم بالمطالبة بحقوقهم المفقودة، تلك الحقوق التي كان ينكرها عليهم المستعمر الإغريقي والمقدوني وعلى رأسهم «بطليموس» نفسه. والواقع أن المصريين قد شعروا بعزيمتهم وقوتهم بعد أن برهنت الأحداث التي وقعت في واقعة «رفح» أن النصر الذي أُحرزَ فيها كان على أيديهم.

وتدل شواهد الأحوال على أن مطالبتهم بحقوقهم كان على أعقاب موقعة «رفح» بمدة قصيرة؛ إذ هبوا بثورة على حكم «بطليموس الخامس» نفسه. وعلى أن «بطليموس» عندما جند المصريين لمحاربة «أنتيوكوس الثالث» انتهج السبيل الذي يلائم موقفه لإخراجه من الورطة التي وُجِدَ فيها، غير أنه في الوقت نفسه كبل نفسه مستقبلاً؛ إذ كان الشعور السائد بين الأجانب والبطالمة بوجه عام هو عدم الثقة بالمصريين الذين كانوا يستعملونهم كعبيد أرقاء في زراعة الأرض والصناعات التي تحتاج إلى أجهاد وعناء، أما المصريون؛ فإنهم بعد خروجهم من موقعة «رفح» أخذوا يفخرون بما نالوه من نصر مؤزر؛ ومن ثم بدأوا يظهرن عدم الطاعة لأولئك الأسياد الذين لولا مساعدة المصريين لهم لضاعت مصر. ومنذ هذه

اللحظة أخذ المصريون يبحثون عن عظيم من أبناء جلدتهم الأماجد ليكون رئيساً لهم، ويمكنه أن يقودهم إلى الحصول على مطالبهم، ولم يمضِ طويل زمن حتى حصلوا على أمنيتهم، وإن كان بعض الأثريين يظن أن مدة البحث أخذت بعض الوقت. وعلى أية حال فإن قيام المصريين بثورة مضاعفاً إلى خيانة القواد الإغريق جاء ضغناً على إبالة؛ مما أدى إلى انتشار الفوضى في كل مرافق الحياة في مصر، وبخاصة في الوجه البحري في بادئ الأمر.

ولا نزاع في أنه من المبادئ الأولية لقيام ثورة في أي بلد أن يكون الشعب في غالب الأحيان أجمع رأيه على كراهية الحاكم الذي يسيطر على البلاد، وكذلك بغضه لنظام الحكم الذي تسير على نهجه الحكومة. أما «بوليبوس» فكان ينظر إلى مجريات الأمور في التاريخ بأنها تطور في القوى يتغير على حسب الأحوال؛ ومن أجل ذلك نجد هذا المؤرخ قد فسّر ما كان يجري في مصر على أثر انتصار المصريين في موقعة «رفح» على أنه تغير في صلة القوة التي كانت بين الملك ورعاياه المصريين؛ ومن ثم نلاحظ أنه لم يبحث الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي يصفها لنا.

كما نذكر هنا أن الإسكندريين كانوا على طول الخط التاريخ البطلمي هم الذين يحملون راية العصيان الذي كان ينتشر في البلاد فيما بعد في صور مختلفة، وقد دلت الحوادث على أن أهالي الإسكندرية هم الذين في أيديهم مصير ملوك البطالمة بسرعة خاطفة أكثر من سائر مصر، وذلك لأنهم كانوا على مقربة من الملك، ويعلمون بمجريات السياسة في العاصمة؛ ومن ثم كانوا على علم بالأسباب التي كانوا يعزلون بها الملك عندما يتراءى لهم ذلك في أي موقف من مواقف البلاد الحرجة، وبخاصة في المنازعات الأسرية.

تدل شواهد الأحوال على أن مركز الكهنة في هذا الوقت يشير إلى وجود روح ثورية على الرغم من أننا لا نعرف ما الحالة النفسية التي كانت عليها نفوس أتباع الإله «أمون» في تلك الفترة من تاريخ البلاد، ومن ثم قد لا يكون من الجزم أن نعطي رأياً محايداً؛ وذلك لأنه يجب على المؤرخ الفاحص أن يميز بعناية الفرق بين الولاء الذي كان يظهره كل من كهنة الوجه القبلي وكهنة الوجه البحري للملك؛ فقد كان هوى كهنة الوجه القبلي مع الثوار في حين أن هوى كهنة الوجه البحري كان مع الملك؛ لما كان يغدقه عليهم من هبات وأعطيات مما كرم أفواههم وأرضى أطماعهم. ومهما يكن من أمر فإن مجمع الكهنة الذي عُقد في «منف» في السنة التاسعة من حكم «بطليموس الخامس» قد أصدر القرار الذي نُقِشَ على حجر رشيد الشهير. وفي هذا المرسوم يهنئ الكهنة الملك الشاب على معاقبته للثوار الذين عكروا صفو حياة المعابد وأتلفوها. وهكذا نجد أن الثوار قد هاجموا المعابد. ولكن يتساءل المرء: هل الهجوم على المعابد هذا كان القصد منه إلحاق الضرر بالمعابد نفسها ونهبها أم لأن الكهنة كانوا يظهرون ميولهم إلى الملك كما هي الحال في كل زمان ومكان؟ وعلى أية حال قد نجد جواباً على هذا السؤال في الثورات التي ستأتي بعد. ويقول بعضهم: إنه يكفي أنه قد ذُكِرَ هنا أن هذه الثورة لم تكن موجهة للإغريق فحسب؛ لأنه لم يكن الكهنة ضمن صفوفها، وذلك لأن رجال الدين في الوجه البحري على الأقل كانوا هدفاً لهجوم الثوار، وقد قيل إن ولاءهم لـ «بطليموس فيلوباتور» كان سببه ما أسبغوه عليهم من نعم. وقد جاء بيانه في صورة جلية في المرسوم الذي أصدره في «منف» وهو الذي عُثِرَ عليه في «بتوم» (تل المسخوطة الحالية). وفي اعتقادي أن هذا ليس بالبرهان القوي؛ وذلك لأنه قد تُوجِدَ في كل بلد أحزاب متناحرة متباينة في مبادئها، غير أنه يكون هناك في أغلب الأحيان وفي الوقت نفسه حزب قوي له الغلبة في نهاية الأمر، وهذه كانت الحالة في مصر.

وتدل الشواهد على أن الحرب التي كانت تقوم بين الطرفين كانت عبارة عن حرب كر وفر؛ أي مهاجمة جماعة من الحرس أو حصار بيت أو حصن يأوي عصاة، أو مهاجمة قرى محصنة بالماتريس كما حدثنا عن ذلك «بوليبوس». هذا ولم يستثن من ذلك بيت المصري الخائن. والظاهر أن كل سكان القرية لم يكونوا في جانب الثائرين كما هي الحال في كل زمان ومكان؛ والسبب في ذلك أنهم كانوا يظهرون بمظهر عدم الاكتراث والتزام السكون خوفاً مما عساه يحيق بهم من عقاب على يد الحاكم الإغريقي على ما يظهر. والمعتقد أن الثوار كانوا يأتون من القرى؛ وذلك لأن الثورة لا تولد في داخل البلدة، وحقيقة الأمر أن عصابات أولئك الذين خرجوا على القانون كانوا يتخذون الصحراء ملجأ لهم، ويعيشون من الغارات التي كانوا يشنونها على المناطق الأهلة بالسكان. وهؤلاء المشردون كانوا من الذين فروا من أراضٍ كان إيجارها باهظاً لا قبيل لهم به، أو من قرية كانت فيها أعمال السخرة لا تُحتمَل، أو من مصنع كان مؤجرو الملك يتطلبون من عماله

مجهودًا لا يحتمله المرء. ومن ثم يمكن للإنسان أن يتصور بحق كيف أن الكثير من هؤلاء المتشردين قد انقلبوا إلى لصوص محترفين يعيشون من السلب والنهب من المناطق الأهلة بالسكان.

وعلى ذلك فإنه ليس لدينا أي شك في أن المتاعب التي وُصِفَتْ في مرسومنا يمكن أن تميز لنا منذ تلك اللحظة بأن العصيان الذي قام في أنحاء البلاد على النحو الذي وصفناه كان موجّهًا على المراكز التي كانت فيها الحياة الاجتماعية لا تزال منظمة تنظيمًا حسنًا كالقرى والمعابد، وكان يقوم بهذا العصيان أولئك الذين كانوا قد أفلتوا من قبضة مطالب الحكومة الباهظة التي كانت قد تخطت وقتئذ حد المألوف من حيث الشدة، ومن ثم أصبح هؤلاء الخارجون لا يؤفون جزءًا من المجتمع الذي يسير على حسب قوانين ينفذها الأسياد المستعمرون الإغريق والمقدونيون على حسب أهوائهم ومصالحهم ومصحة خزانة الملك. هذا، وسنحاول فيما يلي أن نتحدث بصفة عامة عن هذه الناحية من الثورة التي يظهر أنها كانت تحوم في أفق البلاد. فنرى أنه على الرغم من أن سلطان «بطليموس» كانت تعمل على تقويض أركانه خيانات رؤساء البلاد من الإغريق والفتن التي كان يقوم بنشرها في البلاد أهل الريف، وهي التي كانت في الوقت نفسه حربًا على المستعمر وخرابًا للبلاد؛ فإننا نجد كذلك أن السلطة الملكية كانت معرضة لخطر هجوم عدو وافد من الجنوب، وهو الذي كان منذ قيام الأسرة الأمونية في مصر العليا واستقلالها في طيبة تلك البلد التي كان يحكم فيها «أمون» بوصفه ملكًا مستقلًا منفصلًا عن الدلتا، ومن ثم كانت تقوم في وجه كل ملكٍ من الدلتا يسلب منها استقلالها، فكانت بذلك مملكة في وسط مملكة أخرى مستقلة، أو إن شئت فقل إقطاعًا مستقلًا كما يقول بعضهم، غير أن «طيبة» كانت — كما سنرى — المحور الذي كانت تدور فيه الثورة.